

وجهات نظر

أساليب تنظيم عالمية لحلول محلية:
نحو فهم غير نخبوي للمساندة المتبادلة

مزن النيل



واقع السودانيين خلال العام ونصف العام المنصرمين، بمشاهد للعاملين على تحضير الطعام لمجتمعاتهم التي عانت ما عانت، ومشاهد اندفاع الشباب لاستقبال النازحين من مناطق أخرى بكلّ ترحاب، إلى جانب تدفق التبرعات من كلّ حذب وصب، لتمكين تقديم الخدمات الأساسية التي غضت السلطات السودانية الطرف عنها. يجري تداول هذه الأنشطة وتوثيقها البصري على نطاق واسع، على منصات وسائل التواصل الاجتماعي السودانية، إذ يكثر استخدام عبارات مثل «دليل أهلي». وما فتئت المساندات المتبادلة تطرح حلولاً محلية، للإيفاء باحتياجات المستضعفين والمحرومين؛ وتمثّل، في الوقت ذاته، منارة أمل ومصدر فخر لمقاومة الغضب واليأس الناجمين عن تصاعد الأعمال الوحشية والعنف جراء الحرب.

لقد أثبتت تجارب تقديم الخدمات الاجتماعية، والمُساندة المتبادلة، والحلول المحلية، أهميتها في تعزيز صمود المجتمعات التي تواجه آثار الحروب وفشل الأنظمة القائمة سلفاً. لذلك، من المهم إجراء دراسة نقدية لهذه الأساليب، مع وضع الأنماط والدروس المستفادة من تجارب مشابهة حول العالم في الحسبان، لفهم قدرات هذه الأساليب وإمكانياتها، ومن ثمّ تعزيزها.

جاءت استجابة الشعب السوداني مبكرة؛ صبيحة اندلاع الحرب بين قوات



يضطلع أفراد المجتمع بأنشطة المساندة المتبادلة من أجل أفراد المجتمع الآخرين. وتشمل هذه الأنشطة، في ظلّ الواقع السوداني الحالي، تشغيل المطابخ الجماعية، وإدارة مرافق تقديم الخدمات الصحيّة، وإعداد وصيانة دور الإيواء التي تحتضن النازحين، إلى جانب أنواع أخرى من أنشطة تقديم الخدمات الاجتماعية. تستند علاقات تقديم الدعم، ضمن إطار المساندة المتبادلة، إلى مبدأ الأفقية، حيث ترتبط المجموعات والأفراد داخل المجتمعات برباط توفير الموارد المادية والبشرية لبعضهم البعض (وتضمّن في الوقت الحالي، ضمن أشكال أخرى، التبرعات والتطوّع)، دون أن تكون لأيّ طرف فاعل سلطة على طرف آخر.

وتختلف هذه العلاقات اختلافاً كبيراً مقارنةً بالعلاقات الهرميّة، ضمن إطار المساعدات الإنسانية، سواءً أكانت بين الجهات المانحة الدولية والجهات الفاعلة على الصعيد المحلي، أم بين الأنظمة المحلية والمستفيدين. تتجلى هذه العلاقات الهرمية نوعاً ما في الطريقة التي يحدّد بها المانحون أولويات الإنفاق للجهات الفاعلة المحلية؛ دون إفساح المجال لأفراد المجتمع المتضرّر في عملية اتخاذ القرار. ويُمكن وضع هذا النهج الفوقي وانفصاله عن المجتمعات في تعداد عوامل فشل هذه الأنظمة، وهو ما يمكن رؤيته بوضوح في ما يحدث في السودان. ♦

الدعم السريع والقوات المسلحة السودانية،
وقد استعان بقدرات التنظيم الشعبية التي
تراكمت على مدار السنين القليلة الماضية،
كما استعان برؤية المجتمع إلى ذاته، بوصفه
مجتمعاً يتّصف بالكرم والتعاون والمنظومة
الأخلاقية الداعمة لذلك، بهدف الحشد
والتنظيم. ومنذ اليوم الأول لاندلاع الحرب،
استُفيد من الشبكات التي أسّستها لجان
المقاومة مؤخراً، في تشغيل مرافق الرعاية
الصحية، وتدبير إصلاحات الكهرباء، وتوفير
المياه ودور الإيواء.

إلى ذلك، أعيد إحياء التراث الثقافي
والأحاجي والأمثال، التي تُعَلِّي من قيم الكرم
والعطاء والتضافر، للترويج والاحتفاء بالقيم
الأخلاقية التي تعزّز المشاركة في أنشطة
المساندات المتبادلة.

تبدّت مشاهد وأحاجي مُماثلة في سبتمبر
من هذا العام في لبنان؛ مُواجهَةً للهجوم
الإسرائيلي الأخير عليها، والذي أدّى إلى
موجات نزوح جماعي في الجنوب اللبناني.
وعند تصفح وسم #قوتنا_بوحدتنا، نجد أن
توثيق أنشطة المساندات المتبادلة تُشبه
إلى حدٍّ بعيد تلك الأنشطة التي شوهدت
في السودان. فتحت الأسرُ في المناطق
الأمّنة منازلها لاستقبال النازحين، ونُظمت
حملات تبرّع بالدم للجرحى، إلى جانب
توزيع أطعمة وملابس، ضمن أنشطة أخرى.
استند اللبنانيون، بالمثل، إلى التراث والتاريخ
الحديث المعنيّ بالعمل الجماعي والتآزر

على مدار القرن الماضي.
وأسهمت مبادرات المُساندة المتبادلة،
في كلِّ من السودان ولبنان، في تخفيف
معاناة الناس وتعزيز شعور المجتمع بقوّته على
نحو ملحوظ. فضلاً عن ذلك، فهناك أوجه
تشابهٍ أخرى بين الحالتين تستحقّ التركيز،
إذ تُثري التحليل الهادف إلى تأمين وتطوير
إمكانات قوة الشعوب. يظهر التشابه في
السياق بين الحالتين، في الواقع القائم على
فشل الدولة في تقديم الخدمات الأساسية،
وفي الشعور بالحاجة المُلحّة والطارئة، والذي
بذوره يُحفّزُ القوّة الجماعية.

تتمثّل بعضُ النماذج التي كانت تُعدّ
خارج نطاق الأدوات المتاحة للجماهير، قبل
حالة الطوارئ، في تنظيم المجتمع لتشغيل
المرافق الصحية - بما في ذلك بعض المرافق
التي أغلقتها الحكومة سلفاً في السودان -
إلى جانب الاستيلاء على مبانٍ خالية وكسر
أبوابها بغرض إيواء النازحين في لبنان. وتظلُّ
هذه النماذج حقيقةً ماثلة، على الرغم من
أن فشل النظام الصحي في السودان وأزمة
السكن في لبنان كانا واقعاً ملموساً ومعاشاً
قبل الحرب في كلِّ من البلدين. إن تطبيع
المعاناة وإهمال السُلطات لأولويات الناس
قد كَبَحًا جِماح الخيال العام، الذي أطلقت
عنايه صدمة الحرب؛ رغم عدم حدوث
أي تغيير إيجابي في الموارد المُتاحة، بل
تدهورت الموارد في كثير من الأحيان. يحمل

هذا الواقع درساً مهمّاً للمهتمين بالتنظيم على المستوى الشعبي، إذ يُظهر الدور الحتمي لرؤية الجماهير وتصورها لمشكلاتها في تعبئة القدرات المتاحة نحو تحقيق حلول ثورية.

أشارت تقارير حول مبادرات إيواء اللاجئين في لبنان - وقد لجأت إلى شغل المباني الفارغة - إلى أنّها قد استخدمت أساليب سبق استخدامها تاريخياً في أعمال المساندة المتبادلة التي اضطلعت بها «حركة صامدون» في عام 2006، جرّاء هجوم آخر شنّته إسرائيل على لبنان. وقد عزا الناشطون المشاركون قدرة «حركة صامدون» على اتخاذ مثل تلك الإجراءات، إلى الشبكات والبنية التنظيمية التي وُلدت نتيجة الإضراب العام في 2004، على نحو مماثل لتأثير شبكات لجان المقاومة وقدراتها، في ما يتصل بمبادرات المساندة المتبادلة الحالية في السودان. ويكمن الدرس المستفاد هنا في تأثير البنية التحتية التنظيمية على كفاءة ونجاح المساندة المتبادلة.

اتسمت البنية التنظيمية للجان المقاومة في السودان، عند اندلاع الحرب بين القوات المسلحة السودانية وقوات الدعم السريع، بكونها أكثر تطوراً وتعقيداً على نحو ملحوظ، عند مقارنتها بمجموعات النشطاء في لبنان في عام 2006؛ إلا أنّ «حركة صامدون»، من جانب آخر، امتلكت رؤيةً أشدّ وضوحاً للمساندة المتبادلة بوصفها فعل مقاومة ومشروعاً سياسياً. أثّرت هذه الاختلافات - وما زالت تؤثر باستمرار - على إمكانيات المساندة

المتبادلة وتطوّرها في كلا البلدين، وستنتج عن ذلك بكلّ تأكيد دروسٌ مهمة للعاملين على تنظيم الجماهير الذين يسعون إلى إشغال طاقات الشعوب المُستدامة، وذلك على غرار الدروس التي استُكشفت في الفقرات السابقة من خلال دراسة أوجه الشبه بين الحركتين.

تُقدّم المساندة المتبادلة أمثلة ملموسة على أنّ التعاون يُشكّل جوهر بناء المجتمع وقدرته على الصمود، الأمر الذي يُعدّ ضرورياً لبناء مشروع اشتراكي ثوري. ومع ذلك، لا يعدو التعاون كونه عاملاً وحيداً من بين العوامل الضرورية لتطوير هذا المشروع وتنفيذه. وتشمل العوامل الأخرى الفهم الثوري للدولة، وتحديد الفئات الثورية القادرة على محاربة البنى القائمة، وتطوير الأدوات المتاحة لخوض هذه المعركة. يتطلب دمج هذه العوامل توفر التركيز الواعي والعمل الفكري والعوي السياسي. ودون هذه العوامل، تُواجه المجتمعات والأفراد المنخرطون في المساندة المتبادلة خطر الانجراف في دوامة المهام اليومية لتحقيق أسباب البقاء، وتفوتهم بذلك فرصة الاستفادة من أشكال التعاون في إطار مشروع التحرير والعدالة.

تُعدّ تجربتا السودان ولبنان غيضاً من فيض، نظراً إلى التاريخ الغنيّ للمساندة المتبادلة، بوصفها أداة ثورية يُستفاد منها على نطاق واسع لحفظ حيوات الناس، وتنظيم أولئك الذين فشلت الدولة في مساعدتهم. وفي هذا الإطار، يُعدّ تاريخ حزب الفهود

أنّ فعل الاستفادة من التراث الثقافي ذاته، هو فعلٌ مشتركٌ بين هذه المجتمعات، كما هو الحال بالنسبة للسودان ولبنان. ويُعدّ هذا الإطار نخبويًا، في تركيزه على بطولة مُجتمعٍ مُحدّد، وفي استبعادِه لهذا المجتمع من التجربة الإنسانية الجماعية، وحرمانه من الدروس التي يمكن أن تدفع بعجلة نضال الجماهير ضد الأنظمة النخبوية.

إنّ فهم المساندة المُتبادلة بوصفها أداةً عالميةً للبقاء والتنظيم، تمثل لكثير من المجتمعات، على الجانب الآخر، مُنطلقاً لنظرية غير نخبوية لقوة الشعب. لذلك يغدو في عداد المهام الأساسية لأي مشروع ثوري، أن يُعزّز فهم الواقع على نحو نقديّ، غير نخبوي وصادق. ❑

السود في أمريكا مثلاً آخر مفيداً في استخدام المُساندة المُتبادلة على نحو مُتطوّر للدفاع والتعبئة والتنظيم. يُمثّل الاستكشافُ العلميُّ لأوجه التشابه والاختلاف بين الحركات الثورية والتكتيكات التنظيمية الدراسة النقدية التي بدأت هذه المقالة بالإشارة إليها، باعتبارها حاسمةً لفهم نهج المساندة المُتبادلة وتعزيزها. من ناحية أخرى، لا تبدو هذه المكاسب ممكنةً ضمنَ إطار «البطولة الاستثنائية» لكلّ حركة ومجتمع.

تُركّز الرؤية «الاستثنائية» في الغالب على التراث الثقافي، الذي يُوظفه كلُّ مجتمعٍ للدفاع عن المساندة المُتبادلة. وتقدّم هذه الرؤية العوامل الثقافية لكلّ حراكٍ على أنها العامل الرئيس والمُميّز لها، مُتجاهلةً حقيقة



السودان ومحيطه

مجلة تصدر أسبوعياً عن
مركز سودان فاكس للصحافة



نعمل على السودان
من كل مكان

لاستلام نسخة (pdf) من المجلة أسبوعياً

على البريد الإلكتروني،
الرجاء مراسلتنا مرة واحدة على:
atar@sudanfacts.org

على WhatsApp أو Signal،
الرجاء إرسال رسالة تحوي كلمة «أتر» أو «Atar» في التطبيق على الرقم:
+254115438212

للانضمام إلى شبكة مراسلي أتر في السودان الرجاء مراسلتنا على:
correspondent@sudanfacts.org

لزيرة موقعنا الإلكتروني:
www.atarnetwork.com

